أعلام من مدينة تلمسان في الجزائر العثمانية

Scientists from the city of Tlemcen in ottoman Algeria

الدكتورة مختارية بوسيف

أستاذة محاضرة بجامعة الجيلالي اليابس-سيدي بلعباس

البريد الإلكتروني: Boucifmokhtaria3@gmail.com

ملخص:

سطر علماءنا على مر الزمن تاريخا حافلا بالإنتاج،و الإبداع بقي مفخرة للأجيال المتتالية، وقد سجل علماء تلمسان حضورا قويا في ذلك،تأتي هذه المداخلة المتواضعة لتميط اللثام عن بعض الشخصيات التلمسانية التي وضعت بصمتها في سجل تاريخنا العظيم،عبر مرحلتين من الزمن قبل وبعد العهد العثماني.

انتعشت الحركة العلمية في نهاية القرن السابع هجري بظهور المدارس في المغرب عموما،وفي تلمسان خصوصا،فظهرت لأول مرة في مسيرتها التاريخية،كمؤسسات تطور الحركة العلمية،التي كانت تؤطرها الحلقات الدراسية بجامع تلمسان الأعظم،والمساجد المحيطة به،وتخرج منها عدد كبير من العلماء ،حتى غدت مساجدها،ومدارسها معيارا يقاس به نمو الحركة العلمية،ومؤشرا على مدى ازدهار الثقافة،والعلوم والفنون، والآداب.

كما اتسمت هذه المدارس بالإشراف الرسمي للدولة، فسجلت انتصارا كبيرا للسنة والعودة إلى المالكية مذهبا، وانتشار الأشعرية اعتقادا،و كان للرحلات العلمية للمشرق أثر بالغ على إثراء التأليف، والتدريس في حاضرة تلمسان على وجه الخصوص، باعتبارها معبر أساسي من المشرق إلى المغرب.

كل هذا أنتج كوكبة من العلماء والفقهاء تميزوا بغزارة التحصيل، وعمق التفكير، حتى أصبحواحجة في الفقه، والتفسير وعلم الأصول، والنحو، والأدب، والتاريخ، وعلوم عقلية أخرى.

ثم يسدل الستار على هذه الفترة الزاهية من تاريخ تلمسان وغيرها من الحواضر الإسلامية في المشرق والمغرب على حد سواء، ليرفع بعدها على واقع مر،حيث دخل العالم الإسلامي مرحلة من الجمود، والتقليد ضرب كل مجالات الحياة من ذلك الحياة العلمية. فأصبح التأليف والإجتهاد شبه منعدم .

مع دخول العثمانيين إلى الجزائر خبت الحركة العلمية وقل إنتاجها،لأسباب عديدة،ولم يسجل المؤرخون تآليف تذكر في هذه الفترة لعلماء تلمسان ولغيرها ،وكانت هذه المرحلة من التخلف والجمود تمهيد لمرحلة إحتلال الجزائر من طرف فرنسا.

الكلمات المفتاحية:تلمسان-التأليف-العلوم الشرعية-عهد العثماني.

summary

Our scientists line over time eventful history, production, and creativity of successive generations of pride left, has a strong presence in Tlemcen scientists record, come this humble intervention of some textual altelmsanih characters that put its mark on the great history record through two phases before and after the Covenant Ottoman

Scientific movement rebounded at the end of the seventh century Hijri the emergence of schools in Morocco generally, in Tlemcen, first arose in her career as a historical evolution, institutions that were to'tarha seminars collector Tlemcen Azam, surrounding mosques and graduated a large number of Scholars have become mosques, and schools scientific traffic growth is measured standard, an indication of the extent of flourishing culture, science, art, and literature.

These schools also marked the official State supervision, scored a major victory of the year and return to maalikis doctrine and the spread of Muslim culture, belief and scientific trips had a

profound effect on bright enrich authoring, teaching at present Tlemcen in particular, as a key crossing from East to Morocco
All this has produced a galaxy of distinguished scientists and Jurists profusely, and thoughtful, even asbhoahagh in jurisprudence, interpretation, knowledge assets, grammar, literature, history, and other mental science.
Then the curtain falls on this bright period of history of Tlemcen and other cities in the East and Islamic Morocco alike, raised on reality, where he entered the Islamic world stage of immobility, imitation of life hit all the scientific life. It became virtually zero and authoring
With the entry of the Ottomans to Algeria Kabat scientific movement and say, for many reasons, and historians writing in this period to Tlemcen and other scholars, this was a stage of underdevelopment and stagnation stage boot occupy Algeria by France.
keywords: Tlemcen-authoring-forensic science-the Ottoman era

المقدمة:

الحمد لله الملك المعبود ذي العطاء والمن والجود ،اتصف بالصمدية وتفرد بالوحدانية،والملائكة،وأولو العلم على ذلك شهود،نحمده تبارك وتعالى،و نستعينه،فهو الرحيم الودود،وأشهد أن لا إله إلا الله،وأشهد أن محمدا عبده ورسوله،أدى الأمانة ونصح الأمة صلى الله عليه وعلى آله،وصحبه الأطهار وبعد:.

من المعلوم بداهة أن الأمة التي لا تهم بماضيها لا يمكنها أن تعيش حاضرها،فضلا عن استشراف مستقبلها،لكونها أمة معزولة حضاريا لا يمكنها التفاعل مع واقعها، ناهيك عن التفعيل فيه،لهذا كان ولابد من إعادة الاعتبار لتاريخنا،و مورثنا الحضاري والاعتناء به جمعا،ودراسة.

من هذا المنطلق تعين علينا الالتفات إلى تاريخ بلدنا الحبيب الجزائر،الحافل بالعلم والعلماء-و المغيب عنا عمدا-لقراءته قراءة واعية،فنستنبط منه ما نحتاجه في حياتنا،ولتعلم الأجيال الحاضرة ما كان عليه أسلافها من رقي، وتحضر،و الفضل ما شهدت به الأعداء.

قراءة تاريخ الجزائر في اعتقادي يغني عن التطلع لما عند غيرنا من الأمم،و التي كان بعض منها سببا في تخلفنا، وفصلنا عن ماضينا العظيم عن قصد.

تعد تلمسان من المدن الإسلامية العريقة، ضربت جذورها في أعماق التاريخ البشري، لها إرث حاضري عظيم جدا ما يزال جزء كبير منه يحتاج للبحث، والتنقيب عنه من قبل الباحثين، ثم دراسته للاستفادة منه.

هذا ما دفعنا للتساؤل عن الحياة العلمية التي سادت هذه الحاضرة؟،ومن هم أبرز العلماء الذين أَثْرُوا وأَثَّروا،وساهموا في بناءها؟،وما هي التآليف التي تركوها لنا؟.

سأحاول الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال مداخلتي هته -وهي عن جهد مقل-أسافر عبرها في تاريخ تلمسان العريق لأجمع رحيقا من بساتينها العطرة،قبيل وبعد العهد العثماني،والله موفق وهو يهدي السبيل.

وعليه أقسمتها إلى مطلبين:الأول يتناول بعض جوانب الحياة العلمية في تلمسان في العهد الإسلامي (العهد زياني) ،أما المطلب الثاني فيعرض جانبا منها في العهد العثماني.

المطلب الأول:الحياة العلمية لمدينة تلمسان قبل العهد العثماني:

تعد الفتوحات الإسلامية للمغرب الإسلامي، واستقرار الإسلام بين أهلها البربر،من أكبر العوامل التي أدت إلى بناء حضارة عظيمة في المنطقة لم

تشهدها من قبل،فمع دخول جماعة من التابعين مدينة القيروان التاريخية والاستقرار بها،عملوا على تعليم أبناءها الحلال والحرام، وكانت العلوم الدينية في هذه الفترة تستمد من أصلين هما القرآن، والسنة، وكان الطلبة يتلقون عنهم علوم كثيرة،منها:القراءات، والتفسير، وعلوم القرآن و الفقه،وكل ما يتعلق بآيات الأحكام.فقد أخذ هؤلاء التابعون عن كبار الصحابة رضي الله عنهم.[1]

فقد بنيت مدينة القيروان في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني هجري، وكثرت المساجد بها،و اهتم العلماء فيها بالتفسير،وبرواية الحديث،وتدعم هذا العمل ببعثة الفقهاء العشرة الذين بعثهم الخليفة الراشدي الخامس عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه.

وقد تخرج على أيديهم جماعة من علماء إفريقية الذين واصلوا مهمة نشر العلم وتدريسه بعدهم، و هاجر بعضهم فيما بعد إلى المشرق،ونقلوا علومه إلى المغرب من ذلك فقه الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه،وأصبحت القيروان منارة العلم يفد إليها أهل الأندلس، والمغربين الأقصى والأوسط.[2]

وبعد سقوطها توالت على المغرب العربي الكبير العديد من الدويلات كالمرابطين،والموحدين،و الحفصيين، و الزيانيين،غيرها ،وصحب ذلك اضطراب سياسي، وعسكري،وهو ما أثر على الحياة العلمية، والثقافية، والاجتماعية بشكل عام،والتي كانت تزدهر في وقت وتخمد في وقت آخر.

لكن هذا لم يمنع من ظهور العديد من العلماء بعدما شهد المغرب العربي الكبير صراعات فكرية، وعقدية وفقهية كثيرة لمدة طويلة، استقر فيه مذهب أهل السنة، وتجدد انبعاثه في ربوع المغرب الإسلامي، وكثر ضغطه على الحكام عامة، عندها بدأ المذهب المالكي يسترجع مكانته الكبيرة، ودوره

الريادي ضمن المذاهب الأخرى في النصف الأول من القرن السابع الهجري(الثالث عشر ميلادي).

ساعد هذا على نزوح عدد كبير من علماء السنة المالكية من الأندلس بعد سقوط بعض مدنها، واستقرارهم في الحواضر المغربية الكبرى، فقرب الكثير منهم بنو زيان ،وبنو حفص، وبنو مرين وعينوهم في وظائف الفقهاء،والإفتاء، والتدريس، والخطابة.[3]

والجدير بالذكر أن بعض العوامل السياسية كانت من عوامل الإثراء العلمي على سبيل المثال بعد استيلاء _____

(1) التفسير والمفسرون غرب إفريقيا، محمد بن رزق بن طرهون، ج1 ص:497.

(2)المصدر نفسه:ج1ص501.

(3) تلمسان في العهد الزياني،عبد العزيز فيلالي، ج1ص325.

بني مرين على المغرب الأوسط اهتموا بالحركة العلمية التي أرسى دعائمها بنو زيان.[1]

حيث عرفت الحياة العلمية في عهدهم انتعاشا كبيرا ظهر ذلك من خلال المدارس التي أنشئوها مع نهاية نهاية القرن السابع الهجري ،و الاهتمام بالعلماء وطلبة العلم وإغداق الأموال عليهم،وتوفير الأجواء الملائمة لذلك،كما كان للرحلات العلمية أثر بارز هذا الإثراء.

انتشار المدارس التعليمية:

في تلمسان ظهرت المدارس لأول مرة في مسيرتها التاريخية،كمؤسسات تطور الحركة العلمية،التي كانت تؤطرها الحلقات الدراسية بجامع تلمسان الأعظم،والمساجد المحيطة به،وتخرج منها عدد كبير من العلماء حتى غدت مساجدها ومدارسها معيارا يقاس به نمو الحركة العلمية،ومؤشرا على مدى ازدهار الثقافة والعلومن والفنون، والآداب.

كما اتسمت هذه المدارس بالإشراف الرسمي للدولة، فسجلت انتصارا كبيرا للسنة والعودة إلى المالكية مذهبا، وانتشار الأشعرية اعتقادا، كان الهدف من إنشائها تعليم العلوم الشرعية واللغوية استعملت منهجين متعارضين في مظهرهما، وهما الاجتهاد والتقليد.[2]

و خصصت السلطة رواتب وأجور للمدرسين،والعاملين في تلك المدارس،وتحمل نفقات الطلبة المادية. كما أنشئوا المكتبات وقاموا بتبويبها، وترتيبها حسب التخصص،الفن الذي تصب فيه،وسهلوا عملية نسخها بتوفير الأوراق،والأقلام اللازمة لذلك.

وكان الغرض من إنشاء هذه المدارس نشر التعليم ،توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة المذهب والدولة وبعث الاستقرار،و الأمن،والسكينة بين الرعية،لهذا كانوا يشرفون عليها إشرافا مباشرا مطلعين على برامجها التدريسية،ولما كان سلاطين بني زيان مالكيين فقد حرصوا على ترسيخ المذهب المالكي ما أدى إلى تطور المذهب،وانتعاشه وتوحيده في الحاضرة الزيانية.[3]

---

(1)تاريخ الجزائر في القديم والحديث،مبارك بن محمد الميلي،ج2 ص490

أبو عبد الله المقري ورحلته العلمية بين تلمسان وحواضر الغرب الإسلامي ،بكوش فافة ،رسالة ماجستير من جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان،كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية،قسم التاريخ و علوم الآثار،2012 ،ص 43.

(2) تلمسان في العهد الزياني،عبد العزيز فيلالي،ج1ص326.

(3)المرجع نفسه،ج1ص326.

الرحلات العلمية:

كان حرص سلاطين وفقهاء تلمسان على تقوية العلاقة مع أهل المغرب خاصة،و المشرق،والأندلس عامة واضحا،وجليا من خلال الإتصال الدبلوماسي،وتبادل الرسائل الديوانية،والإخوانية،وعن طريق الرحلات العلمية،والحج إلى بقاع المقدسة بالحجاز،وبيت المقدس،مما فتح الباب للتلاقح الفكري،وتدعيم الصلة الثقافية بين علماء تلمسان،ونظرائهم في حواضر المشرق،والأندلس بالرغم من التجزئة السياسية التي عرفتها الأقطار الإسلامية حينذاك.

فتنقل علماء تلمسان لطلب العلم والاستزادة منه،ولقاء كبار الشيوخ المشهورين، والأخذ عنهم وتبادل الآراء معهم في مختلف العلوم النقلية،والعقلية.

فبلغت بذلك المشيخة العلمية،والأدبية التلمسانية أوجها من النضج،والاستواء جعلها تفرض نفسها في الأوساط العلمية شرقا،وغربا،وإذا كانت الدوافع لتلك الرحلات العلمية تختلف من شخص لآخر فإن المقصد العلمي كان أقواها وأشملها.

حتى غدت عنايتهم بالتحصيل العلمي،ونشره،والاستكثار من مجالسة الشيوخ والرواية عن أبرزهم تقليدا علميا متعارفا عليه عند أهل تلمسان.[1]
يظهر هذا التأثير العلمي،والفكري من خلال الفقهاء، والأدباء الذين تزودوا بمعارف المشرق ثم عادوا إلى تلمسان ناقلين معهم المؤلفات،والمختصرات لتدريسها على طلبة المدارس، ومن بينها على سبيل المثال:

-مختصر ابن الحاجب في الأصول والفروع،أتى به علي ناصر الدين المشذالي[2] إلى بجاية وقرره على طلاب مدارسها ثم نقله تلميذه أبو موسى عمران ابن موسى المشذالي إلى تلمسان التي جعلها مقرا له فدرس بمدارسها وكون تلاميذ.

وأدخل الفقيه محمد بن الفتوح التلمساني مختصر خليل بن اسحاق المالكي إلى بلاد المغرب،كما دخلت كتب عبارة عن شروح ومختصرات إلى تلمسان وبلاد المغرب صارت مقررات أساسية للطلاب والدارسين.[3]

---

(1) تلمسان في العهد الزياني،عبد العزيز فيلالي،ج1ص327.

(2)المشَذَّالي(866هـ- 1462م)هو:محمد بن أبي القاسم بن محمد بن عبد الصمد، مفتي بجاية (بالمغرب) وخطيبها. نسبته إلى مشذالة، من قبائل زواوة، ومولده ووفاته في بجاية. الأعلام ،الزركلي،ج7ص5

(3)تلمسان في العهد الزياني،المرجع السابق،ج1ص327.

تغذت هذه الحركة العلمية من الكتب، والعلماء الوافدين عليها من الأندلس،فضلا عن الثراء العلمي والثقافي المحلي(المغربي) الذي كان سائدا ،مما أنتج كوكبة من العلماء والفقهاء تميزوا بغزارة التحصيل، وعمق

التفكير، حتى أصبحواحجة في الفقه، والتفسير وعلم الأصول، والنحو، والأدب، والتاريخ، وعلوم عقلية أخرى.[1]

من أشهر أعلام تلمسان :أذكر من هؤلاء العلماء على سبيل تمثيل لا الحصر:

1/ أبواسحاق إبراهيم التنسي (680هـ-1281م)الذي جاب المشرق والمغرب ودرس بتنس -مسقط رأسه -ومليانة وقرأ بتلمسان ،و بجاية، وتونس،والقاهرة، والشام .

2/أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي(757هـ-1356م)درس بتلمسان و فاس، ثم انتقل إلى مصر وبغداد ثم عاد إلى تلمسان بعلم غزير من المنقول والمعقول، ولازم علماء فاس، ومراكش، وانظم إلى مجلسهم، وانتصب للتدريس في عواصم بلاد المغرب وحواضره، وذاع صيته وأقام عند عبد الرحمان بن خلدون وأجازه في عدة علوم.

3/ أبو علي منصور بن عبد الله الزواوي(770هـ-1368م)تميز بكثرة المشاركة في الكثير من العلوم النقلية والعقلية،درس بتلمسان وبجاية والأندلس والمغرب الأقصى حتى صار علامة في التفسير والفقه وله اليد الطولى في الإفتاء.[2]

4/ أبو عبد الله محمد النجار(ت750هـ-1349م):أخذ العلم عن مشيخة تلمسان ثم ارتحل إلى المغرب الأقصى،حيث درس بمدن مختلفة بتبسة،وفاس،ومراكش حتى صار إمام علوم النجامة وأحكامها،ورجع إلى تلمسان بعلم غزير.

5/أبو عبد الله محمد الحسيني:الشهير بالشريف التلمساني(ت771هـ-1369م)تعلم بتلمسان على كبار شيوخها،حضر مجالس العلم في كل من إلى

تونس وفاس وسبتة وسجلماسة ومصر والحجاز،حتى ملأ بلاد المغرب معارفا،وتلاميذ"فضربت إليه إباط الإبل شرقا وغربا".[3]

---

(1)تلمسان في العهد الزياني، عبد العزيز فيلالي،ج1ص328.

(2) معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،عادل النويهض،ص161،12،74.

(3) تلمسان في العهد الزياني المرجع السابق،ج1ص329.

6/أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب(ت781هـ-1379م) العلامة الشهير،قرأمختلف العلوم على مشايخ تلمسان مسقط رأسه،ثم انتقل إلى بجاية،فدرس على علمائها،ثم رحل إلى تونس ثم المشرق فانتصب للتحصيل والتدريس في عواصمها العلمية ،والتقى بكبار شيوخها،وحضر مجالسهم،وخطب على أكثر من ثمانية وأربعين منبرا في المشرق والمغرب والأندلس،وتوفي بالقاهرة.

7/أبو عبد الله المقري (759هـ-1359م)الفقيه المجتهد في المذهب كما وصفه معاصروه بلغ درجة عظيمة من العلم في تلمسان وخرج منها إلى الحواضر الإسلامية فانتفع به خلق كثير.

8/أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد(842هـ-1438م) ولد بتلمسان،أخذ العلم عن شيوخها،ثم غرَّب وشرَّق مثل أجداده،واختار طريق العلم والرحلة في سبيله،فكان له فضل الإقراء من المغرب إلى الديار المصرية،وقد اشتهر بفضله،وبعلمه،في الأمصار التي زارها حتى أحبته قلوب العامة والخاصة.

9/قاسم بن سعيد التلمساني العقباني:(845هـ-1450م):درس بتلمسان ثم سافر في طلب العلم إلى الديار المصرية،فحضر مجالسها العلمية وأجازه ابن حجر بمصر وحضر دروس البساطي وانتفع بها،ثم عادإلى بلده بدرجة علمية كبيرة.[1]

(10) محمد بن إبراهيم بن الإمام التلمساني(845هـ-1440م): درس بتلمسان حتى صار له قدم راسخة في البيان،والتصوف والأدب،والطب،والشعر،هو أول من أدخل للمغرب كتاب شامل بهرام، وشرحه على المختصر، وحاشية التفتزاني على العضد،وغيرها من غرائب كتب المشرق،الذي ارتحل إليه،وتزاحم عيه الناس في دمشق.

هذا العدد القليل الذي ذكرناه قد يكون كافيا لإعطاء صورة واضحة على رغبة أهل تلمسان في طلب العلم،والسفر لأجله شرقا وغربا،واشتهرت في ذلك بيوتات وأسر كثيرة منها:

آل مرزوق،وآل التنسي،وآل الإمام ،وآل المقري،وآل الشريف التلمساني،وآل زاغو[2]،إلى غير ذلك من البيوتات التي أنجبت خيرة العلماء يعجز هذا المقام عن سرد أسمائهم،فضلا عن الترجمة لهم،و الذين نشروا العلم الشرعي وأثروا واقعه.

وما لبعث أن أسدل الستار عن هذه الحقبة التاريخية ليدخل المغرب الوسيط أو الجزائر كما أصبحت تعرف فيما بعد مرحلة جديدة مست كل جوانب الحياة بما في ذلك الحياة العلمية.

---

(1) معجم أعلام الجزائر،المرجع السابق،ص289،290،312،237

(2) تلمسان في العهد الزياني،عبد العزيز فيلالي،ج1ص329-335.

المطلب الثاني:الحياة العلمية لتلمسان في العهد العثماني :

بعد التحول السياسي الذي شهدته الجزائر في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) وذلك بدخول العثمانيين إليها،أصبح الحديث عن الحياة الثقافية والعلمية يختلف نوعا ما عما كان من قبل، لأنه عهد جديد تغيرت فيه الظروف السياسية،والعسكرية،والاقتصادية،والاجتماعية.

واقع يقول عنه شيخ المؤرخين أبو قاسم سعد الله:"... فإنتاج القرن التاسع كان في الواقع خاتمة لإنتاج فترة امتدت ثلاثة قرون مبتدئة بعهد الموحدين، وكان في نفس الوقت فاتحة لإنتاج عهد العثمانيين بالجزائر، وهو العهد الذي انتهى بدوره سنة 1246 هـ(1830 م)، وأثناء دراستنا لإنتاج القرن التاسع سيتضح أنه كان حلقة بين إنتاج عاش في ظل إمارات محلية ضعيفة وإنتاج عاش في ظل (احتلال) إسلامي مركزي قوي.يعتبر إنتاج القرن التاسع، رغم ذلك، من أوفر إنتاج الجزائر الثقافي ومن أخصب عهودها بأسماء المثقفين (أو العلماء) والمؤلفات. وفي إحصاء سريع أجريته لأسماء العلماء المنتجين خلال القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر وجدت أن عددهم في القرن التاسع يفوق أعدادهم في القرون الباقية متفرقة،ولا سيما القرن العاشر الذي عرف نقصا كبيرا في عدد العلماء وفي المؤلفات..."[1]

كلام الدكتور أبو قاسم سعد الله هذا يكشف لنا واقعا مغايرا لما كان عليه من قبل -للأسباب التي أشرنا إلى بعضها آنفا-. فالنقص الذي اعترى التراث الثقافي والعلمي من ناحية عدد العلماء والمؤلفات يدل على دخول هذا الواقع مرحلة التقليد والجمود، واقع يقول عنه أبو قاسم سعد الله[2]:"وأهم ما تميزت به العلوم الشرعية في هذا العهد التقليد والتكرار والحفظ. فالفقهاء قلما اجتهدوا أو استقلوا بآرائهم، بل كانوا يقلدون سابقيهم تقليدا يكاد يكون

أعمى. فإذا ما حاول أحدهم أن يشذ عن هذا التيار أقاموا عليه الدنيا وأقعدوها، واجتمع عليه المجلس الشرعي الذي كانت تتدخل فيه الدولة. وفي أحسن الأحوال كان يحكم على المستقل برأيه بعزله من وظيفته.أما في أسوأ الأحوال فالحكم عليه بالتكفير والزندقة"[2].

---

(1) تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القسم سعد الله، ،ج2 ص 39

(2) المصدر نفسه،ج2ص 10

هذا الواقع المرير طال العديد من الحواضر الإسلامية الجزائرية ولم تكن تلمسان بمنء عنه،فقد فقدت كثيرا من سمعتها وقيمتها خلال العهد العثماني، وكان التدهور قد بدأ يحل بها قبل ذلك، فالاحتلال الإسباني لوهران ومرساها الكبير قد أدى إلى تدهور تلمسان الاقتصادي، وكذلك السياسي. وغداة استيلاء العثمانيين على السلطة في الجزائر كانت تلمسان حسب وصف حسن الوزان تحتوي على ثلاثة عشر ألف موقد (حوالي ثمانين ألف نسمة) وأنها كانت تضم عددا من المساجد وخمس مدارس.كانت طبقاتها الاجتماعية تضم الصناع والتجار والعلماء والجيش. غير أن النزاع بين الأسبان والعثمانيين في البحر وحول وهران، ثم بين العثمانيين والزيانيين قد أدى إلى زيادة تدهور تلمسان خلال القرن العاشر.[1]

الإضافة إلى التدهور الاقتصادي،والسياسي شهدت تلمسان تدهورا اجتماعيا وثقافيا. فقد هاجر عدد من عائلاتها الغنية والعلمية إلى المغرب الأقصى فرارا من الأسبان الذين تدخلوا في شؤون دولة بني زيان عند ضعفها السياسي، ثم فرارا من حكم العثمانيين عند استيلائهم بالقوة على تلمسان. وبذلك فقدت هذه المدينة عددا من سكانها ذوي النفوذ الاجتماعي والتأثير العلمي. ومن العائلات الشهيرة التي هاجرت إلى المغرب الأقصى عائلة الونشريسي وعائلة المقري.

ولم تستعد تلمسان مكانتها العلمية التي كانت تتمتع بها خلال القرنين الثامن والتاسع (14، 15 م). فقد ظلت خلال العهد العثماني مدينة مهزومة تعاني من التذمر والفقر.[2]

واقع يؤكده كثير من المؤرخين عموما ،وباحثون في حقل الدراسات الشرعية خصوصا،يذكر صاحب كتاب"التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا"الحالة التي آلت إليها أوضاع العلم الشرعي في العهد التركي الذي أغلقت فيه الأبواب في وجه التيارات الجديدة منذ استقرار الأندلسيين،وتوقفت حركة الترحال إلى المشرق الإسلامي،مع توقف المد الثقافي،فاعتكف الناس على المختصرات الفقهية يشرحونها،ويعلقون عليها، حتى أصبحت دراسة الكتب هي الهدف،ضاع مع هذا العلم واختفى أو كما قيل أغلق باب الاجتهاد،هذا الجمود مس كافة الدراسات الشرعية منها علم التفسير.[3]

---

(1)وصف إفريقيا،الحسن بن محمد وزان الفاسي،ج2ص39-41.

وتاريخ الجزائر الثقافي،أبو القاسم سعد الله ،ج1ص176.

(2)تاريخ الجزائر الثقافي،المصدر نفسه،ج1ص177.

(3) محمد بن رزق طرهون،ج1 ص505

فظاهرة التقليد، أدت إلى ندرة الإنتاج في العلوم الشرعية التي تحتاج إلى ثقافة واسعة وعميقة، من ذلك على سبيل التمثيل:

علم التفسير: الحديث عن التفسير يكون من ناحيتين. ناحية التدريس وناحية التأليف.

أولا:من ناحية التأليف: لا نجد في كتاب التفسير والمفسرون في غرب إفريقيا ذكرا لأسماء علماء أو تآليف في علم التفسير ظهرت في هذا العهد ،فقد ترجم صاحبه لثلة من المفسرين نبغوا فيه قبل العهد العثماني أشرت إليهم آنفا،ثم ينتقل للحديث عن تفسير ابن باديس،وابن عاشور دون أن يسجل أي كتاب يذكر في ذلك.

يقول أبو قاسم سعد الله:"...أما التفسير تأليفا فالخوض فيه قليل، ورغم شهرة مدرسة تلمسان العلمية فإنها لم تنتج مفسرين للقرآن الكريم جديرين بالإشارة. حتى العالم المعروف، أحمد الونشريسي(*)وابنه عبد الواحد لم يعرف عنهما التأليف في التفسير.

ولعل السبب في ذلك أن مفسر القرآن الكريم يحتاج إلى ثقافة دينية وتاريخية ولغوية قوية ،لكي ينتج تفسيرا، بالإضافة إلى استقلال عقلي كبير، وهذا ما لم يتوفر للجزائريين خلال العهد العثماني. (20)

ثانيا:من ناحية التدريس: فقد كان شائعا بين العلماء البارزين. ومن الذين اشتهروا بذلك من تلمسان محمد بن علي أبهلول، وابن للو التلمساني، وعبد

القادر الراشدي القسنطيني، وأبو راس الناصر،سعيد قدورة، وأحمد بن عمار، وسعيد المقري،فهؤلاء ربما تناولوا التفسير في مجالس دروسهم التي اشتهروا بها،و هل جددوا وأفادوا؟.

الظاهر أن التقليد والحفظ كان يسيطر على العلماء في جميع الميادين، ومن بينها ميدان التفسير. فمجالسهم كانت في الغالب تكرارا لأقوال المفسرين المتقدمين، وقلما يخرجون عليها برأي جديد يتلاءم مع العصر.[1]

علم القراءات القرآنية:

لم يكن علم القراءات بمنء عن الحالة العامة التي أصابت العلوم الشرعية،و شهرة الجزائريين بتدريس القراءات أكثر من شهرتهم بالتأليف فيها.

---

[*] ستأتي ترجمته مع أعلام تلمسان في العهد العثماني.

(1) تاريخ الجزائر الثقافي،المصدر السابق،ج2ص11 وما بعدها

كانت بعض المراكز في أنحاء الجزائر قد عرفت بالحذق في هذه المادة، مثل زواوة حتى أنها كانت مقصودة للعلماء للإتقان والبراعة.[1]

"وفي تراجم الفكون وابن مريم إشارات إلى بعض العلماء الذين اشتهروا بتدريس القراءات وحذقها في عهدهما. ومن ذلك ما رواه ابن مريم في (البستان) من أن محمد الحاج المناوي قد تصدر للتدريس في عدة علوم ولكنه مهر خصوصا في القراءات ...أما التأليف في القراءات خلال هذا العهد فقد كان أقل من التفسير. ويبدو أن جل اعتماد علماء الجزائر حينئذ كان على (مورد الظمآن) للشريشي المعروف بالخراز المغربي، وعلى شرح محمد التنسي،والمسمى (الطراز في شرح ضبط الخراز). وفي نهاية القرن التاسع ألف

محمد شقرون بن أحمد المغراوي المعروف بالوهراني عملا في القراءات أيضا سماه (تقريب النافع في الطرق العشر لنافع).وقد ألف في ذلك أيضا أحمد بن ثابت التلمساني"[2]

الفقه:

راج في العهد العثماني بالجزائر المذهب المالكي الذي كان سائدا من قبل كما أشرنا سابقا وشاع بين عامتهم ،وانتشرت كتب المالكية في الفقه وفروعه، وأضحت كتب مختصر خليل ورسالة ابن زيد القيرواني وغيرها مصادر للفتوى.ورغم الجمود والتقليد الذي منيت به بعض العلوم إلا أن هذا لم يمنع من نبوغ بعض العلماء ذاع صيتهم في المشرق والمغرب من أشهرهم: الونشريسي ،وأبو راس الناصري[3][4].

---

(1) تاريخ الجزائر الثقافي ،المصدر السابق، ج2/ 16

(2) المصدر السابق ج2/ 21-22.وينظر كذلك: القراءات بين مصادر المتقدمين -دراسة مقارنة بين بنجامين بلوم والشاطبي ومناهج التربية الحديثة - محمودي نور الدين ،ص2007م.

ينظر مقال: شبكة ألوكة الشرعية: دليل الطالبين إلى معرفة القراء الجزائريين المجازين لد:بليل عبد الكريم تاريخ الإضافة:7-7 -2010.وينظر كذلك:منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية،عبد الكريم الفكون ،تحقيق:أبو قاسم سعد الله.

(3) محمد بن أحمد ولد بناحية جبل كرسوط بمعسكر سنة 1150هـ-1737م أقام بالمغرب ثم رجع إلى معسكرو أقام بها (1238هـ-1823م) له عدة

تصانيف أشهرها: فتح الإله في التحدث بفضل ربي ونعمته.من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي،ناصر الدين سعيدوني،ص462

(4)الفقه والقضاء المالكي في الجزائر خلال العهد العثماني قراءة في مخطوط للشيخ أبي راس الناصر المعسكري"،تقي الدين بو كعبر، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ،العدد05،سنة2015،ص242و ما بعدها.

في الحقيقة أن إحصاء التآليف الفقهية تكاد تكون مستحيلة. فالإنتاج غزير ومتعدد المشارب تعدد قضايا الفقه نفسها. فلا يكاد يخلو منه زمن ولا مكتبة.

ثم إن بعض هذا الإنتاج لا يعدو أن يكون تكرارا أو استنساخا،حتى يكاد كل من جلس من الفقهاء لتدريس الفقه يملي،أو يؤلف لتلاميذه كراسة، أو أكثر شرحا، أو حاشية على مختصر خليل وما في معناه كالرسالة، حتى كثرت هذه الإملاء،والتأليف كثرة المدرسين أنفسهم. ولكن لا تكاد تعثر على جديد في ذلك لا في الفكرة ولا في المنهج.

فالفقيه كان بالدرجة الأولى يحاول أن يفيد طلابه الحاضرين ولم يكن يؤلف لغيرهم من العلماء أو من الأجيال التالية. وتتكرر هذا في النحو أيضا وغيره من المواد ذات الطابع التدرسي،حيث غلب على هذه المواد مرض الشرح والحاشية، وهو في الواقع مرض العلم في العصر كله. [1]

ومن الملاحظ على حركة التأليف في الفقه سيطرة مختصر الشيخ خليل على مختلف الدراسات الفقهية المالكية في الجزائر.

وقد ذكرنا أن التآليف المتعلقة بالتفسير والحديث كانت في جملتها قليلة وغير أصيلة ولكنها كانت وفيرة في شرح مختصر خليل .

ولم يكن خليل بن إسحاق مصدرا للفقه والتشريع في الجزائر فحسب بل كان مصدرا للتبرك به أيضا. ولعل هذه النظرة الصوفية هي التي جعلت الفقهاء، وقد غلب على أكثرهم التصوف، يخلطون بين خليل الفقيه المشرع،وبين خليل الصوفي الدرويش.

يقول أبو القاسم سعد الله:" فهذا ابن مريم، صاحب (البستان)، قد ترجم في القرن الحادي عشر لخليل بن إسحاق المصري في كتاب يتناول علماء و صلحاء تلمسان (تبركا به)". وهذا في الواقع يدل على تحول في الدراسات الفقهية نفسها.فيحيى بن موسى المغيلي المازوني صاحب (نوازل مازونة)، الذي عاش في القرن التاسع لم يكد يذكر الشيخ خليل في مؤلفه، على طوله وأهميته، بل كان يستمد آراءه ونوازله من وحي العصر ومن مصادر الفقه الإسلامي الأخرى.[2]

---

(1) أبو القاسم سعد الله:تاريخ الجزائر الثقافي،ج2ص 65،66

(2)المصدر نفسه،ج2ص67،66.

لقد أنجبت مدينة تلمسان في عهودها الزاهرة أعظم الفقهاء الذين عرفتهم الجزائر تدريسا وتأليفا.

وفي بداية العهد العثماني وطيلة القرن العاشر جلبت فاس إليها معظم الباقين في تلمسان ونواحيها.

ومن أبرز العائلات العلمية التلمسانية التي اهتمت بالفقه عائلة الونشريسي،والمغيلي،والمقري،والعقباني. ومعظم أفراد هذه العائلات كانوا

يترددون بين تلمسان وفاس ،كما ظلت مازونة أيضا تنافس تلمسان في ميدان الفقه، فأنجبت هي الأخرى بعض رجال هذا العلم، ومن أهم خريجي مدرستها في آخر العهد العثماني أبو راس الناصر.

أما الشرق الجزائري ففقهاؤه المؤلفون قليلون بالقياس إلى غيره،ورغم شهرة بعضهم في التدريس،والتأليف فإنه لا أحد منهم يضاهي مثلا أحمد الونشريسي في مؤلفاته الفقهية. وإذا كانت فاس قد امتصت عددا من علماء الجزائر خلال العهد العثماني،فإن تونس لم تفعل ذلك، لأن البلدين كانا يخضعان لنفس النظام السياسي،ولكن تونس كانت معبرا للعلماء الجزائريين في رحلتهم إلى الحج،أو طلب العلم في المشرق الإسلامي، فعبرها أحمد المقري،وأبو راس،ومحمد بن العنابي،وأحمد البوني،وأحمد بن عمار. وقد امتصت عواصم المشرق أيضا عددا من هؤلاء العلماء كما عرفنا.رغم مكانة بعض علماء مدينة الجزائر العلمية فإن أحدا منهم لم يستطع أن ينافس في الفقهيات زملاءهم علماء غرب الجزائر أو شرقها".[1]

وسأذكر بعضا من هؤلاء الأعلام الذين نشئوا في تلمسان، وتعلموا بها،ثم رحلوا إما إلى المغرب، أو المشرق إبان الوجود العثماني .

أعلام من تلمسان في العهد العثماني:

1/ابن للو التلمساني:عالم مفسر،عاش في القرن 13ه 19م،ختم تفسير القرآن الكريم في الجامع الأعظم بتلمسان،كان يتبع في تفسيره شرح المعاني الظاهرية،والاعتماد على أساليب الاستدلال،والاستنتاج،أخذ عنه كثير من الطلاب،أساء حاكم تلمسان معاملته فخرج من تلمسان واستقر بواد غريس،ثم انتقل إلى معسكر.

(1) تاريخ الجزائر الثقافي المصدر السابق، ج2ص76.

(2)موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين،تأليف مجموعة من الأساتذة،تقديم محمد الأمين بالغيث،إشراف:رابح خدوسي، ج1ص 160

2/سعيد أبو عثمان بن أحمد المقري(1011هـ-1603م)عالم تلمسان في وقته،ومفتيها ستين سنة خطب في مسجدها الأعظم خمسا وأربعين سنة، ولد بها ونشأ تعلم،اخذ عن الونشريسي.

3/محمد بن أحمد المعروف بابن الوقاد(1002هـ-1593م)من علماء تلمسان قاض و مفسر ومحدث وفقيه وأديب،هاجر منها بعد دخول الأتراك لها إلى المغرب الأقصى ونزل مدينة ترودانت فنتولى الفتوى والإمامة والتدريس بجامعها الكبير.[1]

4/أبو العباس أحمد بن عثمان بن علي التلمساني:الصوفي،من علماء المالكية أندلسي الأصل ولد ونشأ بتلمسان، وأخذ عن مشايخها،رحل للمشرق فأخذ العلم وأخذ عنه الناس مات بالقاهرة.

5/الحسن بن علي التلمساني(1060هـ-1650م)، محدث حافظ،من كبار علماء تلمسان ،تعلم بها،و رحل للمشرق لأخذ العلم ثم عاد إلى بلده فتصدر للتدريس والإقراء.

6/أبو زيد عبد الرحمان بن إدريس بن محمد بن أحمد المعروف بالمنجرة:مقرئ من كبار علماء المغرب في عصره،مفسر ومحدث وأصولي ،فقيه،نشأ بتلمسان وأخذ عن علمائها،ثم انتقل إلى فاس وتوفي بها.[2]

7/أبو عبد الله محمد شقرون بن محمد أحمد المغراوي الوهراني (929هـ-1523م)المقرئ، الحافظ،الفقيه، رحل إلى فاس، وتوفي بها.

في نهاية هذه الورقة البحثية المتواضعة عن الحياة العلمية في الجزائر قبيل وإبان عهد العثماني تظهر لنا صورة أراها مشرقة في تاريخ الجزائر، ألا وهي **صمود الحركة العلمية في وجه التحديات التي واجهتها**.

فرغم الظروف القاسية التي مر بها الجزائريون على وجه الخصوص،والمسلمون في الغرب والشرق على وجه العموم لم يتوقفوا عن التدريس، والتأليف،والاجتهاد حسب ما توفر لديهم آنذاك،وإن كانت هذه الجهود فردية ولا ترقى إلى المستوى المطلوب لكنها كانت في الحقيقة محاولة ينبغي تثمينها،بل أراها حلقة وصل بين الحاضر والماضي ،ولابد من الالتفات إليها وبعثها بالتحقيق،و الدراسة ،والنشر.

---

(1)معجم أعلام الجزائر،عادل النويهض،ج1ص311، 343.

(2)المصدر نفسه،ج1ص69،66

(3) المصدر نفسه،ج1ص189

خاتمة:

بعد هذه الالتفاتة السريعة والمتواضعة للحياة العلمية في تاريخ الجزائر المعاصر،أخلص إلى جملة من النتائج هي كالآتي:

1/بعد دخول الفتوحات الإسلامية غرب إفريقيا،واستقرار الإسلام بين أهلها سجلت الحياة العلمية في البداية حضورا قويا تمثل في انتشار المذهب المالكي ،ورغم الانتكاسة التي سجلها التاريخ للمنطقة ،و الاضطرابات التي عرفتها استمرت لبضع قرون إلا أن عودة الأمن،والاستقرار مكن للمذهب المالكي مرة أخرى من الظهور والاستقرار نهائيا فيها.ولم يكن ذلك ليحدث لولا ظهور المدارس،و لأول مرة في مدينة تلمسان في نهاية القرن السابع و بداية القرن الثامن للهجرة.

2/ تغذت الحياة العلمية في مدينة تلمسان كغيرها من الحواضر الإسلامية بالرحلات العلمية التي فتحت الباب للتلاقح الفكري،وتدعيم الصلة الثقافية بين علماء تلمسان،ونظرائهم في حواضر المشرق،والأندلس بالرغم من التجزئة السياسية التي عرفتها الأقطار الإسلامية حينذاك.

3/بلغت المشيخة العلمية،والأدبية التلمسانية أوجها من النضج،والاستواء في القرن السابع والثامن الهجري،جعلها تفرض نفسها في الأوساط العلمية شرقا،وغربا،وإذا كانت الدوافع لتلك الرحلات العلمية تختلف من شخص لآخر فإن المقصد العلمي كان أقواها وأشملها.

4/اشتهرت تلمسان ببيوتاتها علمية التي أثرت العالم الإسلامي بغزارة علمها كآل مرزوق،وآل التنسي،وآل الإمام ،وآل المقري،وآل الشريف التلمساني،وآل زاغو،و غيرها من البيوتات التي أنجبت خيرة العلماء يعجز هذا المقام عن سرد أسمائهم،فضلا عن الترجمة لهم،و الذين نشروا العلم الشرعي،وأثروا واقعه.

5/إن التحول السياسي الذي شهدته الجزائر في نهاية القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) ودخول العثمانيين إليها،أدى إلى انطفاء شعلة الحياة

الثقافية والعلمية بها،و دخولها مرحلة الجمود، والتقليد،هذا الواقع دفع بأغلب علماء تلمسان للهجرة إلى المغرب الأقصى،أوالمشرق.

6/في بداية العهد العثماني وطيلة القرن العاشر جلبت فاس إليها معظم الباقين في تلمسان ونواحيها.

ومن أبرز العائلات العلمية التلمسانية التي اهتمت بالفقه عائلة الونشريسي،والمغيلي،والمقري،والعقباني. ومعظم أفراد هذه العائلات كانوا يترددون بين تلمسان،وفاس،كما ظلت مازونة أيضا تنافس تلمسان

في ميادين العلم كلها.

قائمة المصادر والمراجع:

1/ الأعلام ،خير الدين الزركلي،دار العلم للملايين،الطبعة: الخامسة عشر،سنة: 2002 م

2/ تاريخ الجزائر الثقافي ،أبو القاسم سعد الله،دار البصائر، الجزائر،طبعة خاصة:2007 م.

3/ تاريخ الجزائر في القديم والحديث، مبارك بن محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب،الجزائر.

4/ التفسير والمفسرون غرب افريقيا ،محمد بن رزق بن طرهون،دار ابن الجوزي،السعودية،الطبعة الأولى:1426هـ.

5/ تلمسان في العهد الزياني،عبد العزيز فيلالي،موفم ،الجزائر 2002م.

6/ القراءات بين مصادر المتقدمين ومناهج التربية الحديثة-دراسة مقارنة بين بنجامين بلوم والشاطبي ،محمودي نور الدين ،دار الإمام مالك للكتاب،الجزائر،2007م

7/معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،عادل النويهض،مؤسسة نويهض الثقافية،بيروت ،لبنان،الطبعة:02،1400هـ-1980م.

8/من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي،ناصر الدين سعيدوني،دار الغرب الإسلامي ، الطبعة:01،1999م.

9/ منشور الهداية في كشف من ادعى العلم والولاية،عبد الكريم الفكون بن محمد بن عبد الكريم القسنطيني: ،تح أبو قاسم سعد الله،دار الغرب الإسلامي،لبنان،الطبعة:01،1408هـ -1987م.

10/ موسوعة العلماء والأدباء الجزائريين،تأليف مجموعة من الأساتذة،تقديم محمد الأمين بالغيث،إشراف:رابح خدوسي،منشورات الحضارة،الجزائر،ط:2014م.

11/ وصف إفريقيا،الحسن بن محمد وزان الفاسي،دار الغرب الإسلامي،بيروت، لبنان، الطبعة:02،1983م

المجلات والدوريات:

1/دليل الطالبين إلى معرفة القراء الجزائريين المجازين ،بليل عبد الكريم، شبكة ألوكة الشرعية، تاريخ الإضافة:7-7 -2010م.

2/ أبو عبد الله المقري ورحلته العلمية بين تلمسان وحواضر الغرب الإسلامي،بكوش فافة، رسالة ماجستير مناقشة في جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان،كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية،قسم التاريخ و علوم الآثار.

3/ الفقه والقضاء المالكي في الجزائر خلال العهد العثماني قراءة في مخطوط للشيخ أبي راس الناصر المعسكري،تقي الدين بو كعبر، مجلة المعارف للبحوث والدراسات التاريخية ،العدد05،سنة2015.